الشبهة الثالثة عشرة

السنة ليست وحيا ؟!

فى هذه الشبهة يحاول منكرو السنة الحط من شأنها ، وتجريدها من خصائصها الدينية ، فهى عندهم مجرد كلام للنبى ﷺ ، وأن كلامه ليس فيه إلزام للأمة .

ويطعنون فى الحديث الشريف : «ألا إنى أوتيت القرآن ومثله معه» ويعتمدون فى طعنهم فيه على حديث النهى عن كتابة أحاديث النبى عليه الصلاة و السلام ، ويقولون لو كانت السنة من عند الله لما نهى عن كتابتها النبى، بل كان المتعين الأمر بكتابتها مثل القرآن تماما .

ويقول بعضهم : لو كانت السنة وحيا من عند الله ما أهمل النبي تدوينها وكتابتها ، إلي أن يأتى البخارى ومسلم فى القرن الثالث فيقوما بمهمة كان ينبغى أن يدعو إليها النبى نفسه فى حياته .

كما يحرفون معنى قوله تعالى : ﴿ **وَمَا يَنطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ * إِنْ هُوَ إِلاَّ وَحْيٌ يُوحَىٰ** ﴾ [النجم : ٣ ، ٤].

يحرفون معناه ؛ لأن أنصار السنة يستدلون به على أن السنة التى صح صدورها عن النبى ﷺ من عند الله . واليك ما قالوه فى هذا الشأن :

قال بعضهم : إن ما كان يقوم به النبى ﷺ ، هو وحى كله ، لقوله تعالى: ﴿ **وَمَا يَنطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ * إِنْ هُوَ إِلاَّ وَحْيٌ يُوحَىٰ** ﴾ والاستناد إلى هذه الآية الكريمة لا مسوغ له هنا ، فالضمير «هو» لا يعود إلي النبى ﷺ ، وإنما يعود بوضوح – وحصرا – إلى الكتاب المنزل .[الكتاب والقرآن : ٥٤٥] د/محمد شحرور .

هذه خلاصة وجيزة لما قالوه حول تفريغ السنة من محتواها الدينى ، باعتبارها شطر الرسالة الثانى بعد القرآن ، وتراهم فى سبيل الوصول إلي هذه الآية

ينتحلون الأسباب الواهية ويتجرأون على إهدار قيمة النصوص ، التى تقف فى طريقهم على النحو الذى رأيت .

تفنيد هذه الشبهة ونقضها :

السنة التى استوفت شروط الصحة سنداً ومتناً لا ريب أنها كلام نطق به النبى ﷺ ، وأنه من مقومات الرسالة ، ومتصل بمهمة التبليغ ، التى من أجلها أرسل الله محمداً ﷺ ، ليقيم على الناس الحجة ، وتتم عملية التكليف .

وما كان هذا شأنه فهو صادق كل الصدق ، والناس ملزمون به مثل إلزامهم بالقرآن سواء بسواء ، إذ لا فرق بين أمر أو نهى طريقه القرآن ، وأمر ونهى طريقه السنة النبوية .

وهذا ما يفيده الحديث المشهور : « الأ وإنى أوتيت القرآن ومثله معه » .

فالمثلية بين القرآن ، وبين ما أُوتيه الرسول ﷺ ليست مثليه (الكم) – أعنى العدد – وإنما هى مثلية (الكيف) .

ليست مثلية العدد فيكون عدد الأحاديث النبوية مثل عدد آيات القرآن ، أو جُمَل الأحاديث مساوية لـ (جُمَل) القرآن ، ولا ينبغى أن يخطر هذا المعنى علي بال أحد .

وإنما هى مثلية (الكيف) ويمكن توضيحها فى الآتى :

- مثلية « الحقية » فالقرآن حق لا باطل فيه ، والسنة حق لا باطل فيها .
- مثلية الطاعة والامتثال ، فتجب طاعة الرسول فى ما أمر به أو نهى عنه .

وبعد هذا ليس مهما عندنا أن يكون طريق السنة هو الوحى الحرفى ، أو الوحى المعنوى ، أو يكون طريقها الإلهام ، أو يكون طريقها الاجتهاد كما ذهب إلي هذا بعض العلماء ، وبالغ فيه منكرو السنة .

يكفينا أن السنة التى صح صدورها عن النبى ﷺ : كلام خرج من فمه الطاهر ، أو فعل كان هو فاعله ، أو تقرير لفعل صدر من غيره فلم ينهه عنه وكان المراد بكل ذلك التبليغ عن الله عز وجل .

أقول يكفينا هذا ، ولا نتطلب شيئًا آخر بعده ، لأن به تقوم الحجة ، ويتضح المراد .

تحريف معنى الآية :

رأينا كيف حرَّف منكرو السنة معنى آية « النجم » وجزموا بأن ﴿ **إِنْ هُوَ إِلاَّ وَحْيٌ يُوحَىٰ** ﴾ وصف للقرآن وحده ، ولا تدخل السنة فى هذا الوحى بحال ، ويقدح فى هذا الجزم سياق الآيات :

﴿ **وَالنَّجْمِ إِذَا هَوَىٰ * مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَىٰ * وَمَا يَنطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ * إِنْ هُوَ إِلاَّ وَحْيٌ يُوحَىٰ** ﴾ .

منكرو السنة فرَّقوا بين الضمير المستتر فى « ينطق » وهو فاعل النطق فجعلوه للنبى أو أبقوه على دلالته الظاهرة – وهذا حق لا نزاع فيه – وبين الضمير الظاهر المنفصل فى ﴿ **إِنْ هُوَ إِلاَّ وَحْيٌ يُوحَىٰ** ﴾ فجعلوا الضمير (هو) عائداً على القرآن وحده .

وهذا تعسف محض ؛ لأن القرآن لم يرد له ذكر هنا حتى يعود عليه الضمير؛ ولأن لهذا الضمير مرجعًا فى الآية قبله ، وهو « النطق » المفهوم من الفعل المضارع « ينطق » أي : وما نطقه ﷺ إلا وحى يوحى . سواء فى ذلك القرآن والسنة .ولأن المقام مقام ثناء وتزكية لرسول الله ﷺ . من طهارة قلب ، وصدق لسان .

وقد أكد الحق عز وجل هذا الثناء بالتوكيد القسمى ﴿ **وَالنَّجْمِ إِذَا هَوَىٰ** ﴾ .

ثم نزه الله رسوله بعد ذلك فنفى عنه الضلال والغواية ﴿ **مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَىٰ** ﴾ .

ثم نفى تأثير أهواء النفس فى قوله وحديثه (نطقه) ﴿ **وَمَا يَنطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ** ﴾ . ثم حصر نطقه في كونه وحيا .

فمن أين فهم هؤلاء المرجفون أن الضمير في ﴿ **إِنْ هُوَ** ﴾ عائد على القرآن وحده؟

إن محمداً – ﷺ – كان ينطق بالسنة كما ينطق بالقرآن ، فكان حريا بهم – لو كانوا منصفين – أن يقولوا إن الضمير فى ﴿ إِنْ هُوَ ﴾ شامل لما نطق به النبى كله ، سواء كان نطقه قرآنا ، أو سنة مراداً بها التبليغ عن الله عز وجل، ولما كان محمد ﷺ ينطق بالقرآن وبالسنة وقد سميت هذه السنة وحياكما تقدم ، فرَّق كثير من العلماء بين وحى القرآن ووحى السنة :

● فوحى القرآن ما كان باللفظ والمعنى ، ولا تجوز بحال روايته بالمعنى فحسب .

ووحى السنة ما كان بالمعنى ، واللفظ من عند النبى ﷺ، ويجوز روايتها عنه – عليه الصلاة السلام – بالمعنى عند الضرورة . نطقا لا كتابة .

● أو أن القرآن وحي جَلِيٌّ ، والسنة وحى خَفِيٌّ وكون السنة من عند الله ، بأى كيفية أعلم الله بها رسوله ، هذا المعنى يؤيده القرآن الحكيم مرة أخرى فى قوله تعالي : ﴿ **وَأَنزَلَ اللَّهُ عَلَيْكَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُن تَعْلَمُ وَكَانَ فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا** ﴾ [النساء:١١٣] .

فهل – بعد هذا – يكون لشبهة منكرى السنة هذه رواج أو قبول ، عند ذوى العقول .

ولا يقدح فى كون السنة وحى معنى لا وحى ألفاظ ، أن بعض الأحاديث تختلف رواياتها بوضع لفظ مكان آخر أو بالزيادة والنقص ،أو بالتقديم والتأخير .

لأن هذه «الاختلافات» إن كانت بسبب اختلاف السماع عن رسول الله ، فإن كل راو يروى ما سمع كما سمع من رسول الله عليه الصلاة السلام ، فمرة نطق بهذا ، ومرة نطق بذاك حتى وإن ترتب على ذلك اختلاف المعنى .

وما أشبه هذا فى السنة الصحيحة باختلاف القراءات فى القرآن ، والقراءات الصحيحة كلها قرآن . ولا تقدح هذه القراءات فى مصدرية القرآن ، وهو الوحى المتعبد بتلاوته .

* * *